مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد.

لم تحظ فترة من الفترات – عبر التاريخ – بالاهتمام، والدراسة، والتحليل، والنقد، مثلما حظيت به فترة الحروب الصليبية. فقد حظيت تلك الحقبة التاريخية بكم هائل من المؤلفات سواء منها الحديثة أم المعاصرة التي تملأ أرفف المكتبات في الشرق والغرب. ويرجع السبب في ذلك إلى أن حقبة الحروب الصليبية اشتراك في صنع أحداثها ثلاثة عوالم: العالم الغربي اللاتيني – صانع تلك الحروب وحامل صليبها، والعالم البيزنطي، الذي ساد الاعتقاد طويلاً وما يزال بين كثير من الدارسين الغربيين والشرقيين على أنه المسؤول المباشر عن قيام تلك الحروب – اتهام هو منه براء، لأن ما لحق به من أضرار لا تقل كثيراً عما لحق العالم الإسلامي، والعالم الإسلامي الذي عانى من ويلاتها على مدى قرنيين من الزمان، وهو أمر نظر المنصفون من حفدة الصليبيين إليه على أنه نقطة سوداء في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ووصمة عار لطخت جبينها.

من ثم كان طبيعياً أن يتنافس أبناء هذه العوالم الثلاثة في تسجيل أحداث ووقائع تلك الحروب، كل من وجهة نظره: فانقسم اللاتين بين مبرر، أو مدافع، أو مبتهج، أو مجرد راوٍ، بينما انقسم

البيزنطيون بين مستاء وناقم وحذر. وأما المسلمون فقد انقسموا إلى سبّاقين حاثين على الجهاد أو مدونين فخورين بالظفر والانتصار؛ الأمر الذي أدى إلى أن يترك جميعهم كمًّا هائلاً من التراث والفكر إلى درجة أن أي باحث أو دارس لتاريخ حقبة الحروب الصليبية لن يعاني مطلقاً من نقص المصادر التاريخية، بل إنه سيكابد مشقة الاختيار والانتقاء بسبب وفرة المعلومات وغزارتها، وشدة اختلافها وتنوعها .

ومع ذلك فإن مكتباتنا لا تحوي أي كتاب ذو سمة أكاديمية يتناول تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب منذ القرن الخامس ق.م وحتى عام (١٢٩١م). وهي الفترة الممتدة من اندلاع الصراع بين الإغريق والفرس في عام (٤٩٩) ق.م وبين سقوط مدينة عكا في عام (١٢٩١) في يد المسلمين وطرد آخر فلول الصليبيين من الوطن العربي .

ومن هنا انبثقت فكرة وضع كتاب أكاديمي يشتمل على تلك الفترة التاريخية يكون عوناً للطلاب في دراستهم ولكل من له الرغبة في التعرف على تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب.

وقد حاولت أن أتتبع فيه – قدر المستطاع – الأحداث التي تربط بين الشرق والغرب مع التركيز على الجوانب السياسية والعسكرية بداية بالصراع الذي نشب بين الإغريق والفرس فيما يُعرف اصطلاحاً بالحروب الميدية، ثم بين روما وقرطاجة، ثم بين الإمبراطورية البيزنطية وريثة روما وبين الدولة العربية الإسلامية الناشئة بعد قيامها وما ترتب على ذلك من فتوحات وتوسعات على حساب الأراضي والمناطق البيزنطية، وكيف تطور الصراع بين الجانبين إلى أن وصل إلى أخذ

الطابع الديني في مراحله المتأخرة، وخاصة بعد ضعف الدولة العباسية وظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث مع بداية القرن الحادي عشر وتوغلهم في آسيا الصغرى وهزيمتهم للبيزنطيين واستيلائهم على أغلب مدنها بعد عام (١٠٧١م).

ثم كيف انتقل الصراع إلى الغرب الأوروبي الذي حل محل الإمبراطورية البيزنطية وكيف استغلت البابوية الفرصة التي واتتها بسبب طلب البيزنطيين المساعدة العسكرية من الغرب للوقوف في وجه توسع السلاجقة في آسيا الصغرى وبلاد الشام وحماية القسطنطينية، وإعلانها عن قيام الحروب الصليبية. كما يتناول الكتاب أسباب قيام الحروب الصليبية وملابساتها، ودوافع الفئات المختلفة التي شاركت فيها، وسقوط بيت المقدس وتأسيس مملكة صليبية فيه، وتأسيس عدد ثلاث إمارات صليبية أخرى هي إمارة الرها، وإمارة أنطاكية، وكونتية طرابلس. ثم علاقات هذه الإمارات مع بعضها ومع جيرانها.

وتناولت فيه أيضاً ظهور عماد الدين زنكي وتأسيسه للدولة الزنكية التي رفعت راية الجهاد ضد الصليبيين وقلبت موازين القوى لصالح المسلمين. ثم سقوط إمارة الرها وما ترتب على ذلك من قيام الغرب بالدفع بحملة صليبية ثانية في محاولة لترميم الشرخ الذي وقع في البناء الصليبي في المشرق بإعادة انتزاعها من أيدي المسلمين. ثم مجيء نور الدين محمود واستمرار الكفاح ضد الوجود الصليبي ودخوله في سباق مع مملكة بيت المقدس الصليبية في الاستيلاء على مصر التي كانت هدف الصليبيين منذ أن وطئت أقدامهم أرض الشرق، وكيف

استطاع أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ضمها والسيطرة عليها.

ويتناول الكتاب أيضاً، ظهور صلاح الدين ودوره في توطيد مركزه في مصر أولاً، بإلغائه الخلافة الفاطمية الشيعية وقضائه على جميع المؤامرات الداخلية والخارجية التي حيكت ضده، ثم الجهود العظيمة التي بذلها في توحيد صفوف المسلمين للوقوف في وجه الغزاة الصليبيين استعداداً للمعركة الفاصلة التي وقعت في حطين عام (١١٨٧)، والتي ترتب عليها قهر الصليبيين واستعادة بيت المقدس وأغلب المدن التي كانت بأيديهم. ثم يأتي الحديث عن الحملة الصليبية الثالثة وملابساتها والتي هدف الغرب من ورائها إلى إنقاذ مدينة عكا التي حلت محل مملكة بيت المقدس ومحاولة استرداد القدس.

ثم يتناول الكتاب الوضع في المشرق بعد وفاة صلاح الدين، والحديث عن بقية الحملات الصليبية وملابساتها من الحملة الرابعة وحتى الحملة الثامنة؛ ويتخلل ذلك الحديث عن العلاقات الغربية المغولية ومحاولات البابوية وكذلك الملك الفرنسي لويس التاسع التحالف معهم بغرض الإطباق على المسلمين والقضاء عليهم ونتائج تلك المحاولات. وختاماً سقوط مملكة عكا، وبعض النتائج التي ترتبت على الحروب الصليبية.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشكر كل من أسهم في إخراج هذا الكتاب ولو بكلمة. وأخص بالشكر صديقي العزيز د. حسن أحمد الأشلم الذي تكبّد عناء قراءة المسوّدة الأولى للكتاب وتصحيحها لُغوياً.

وكذلك الشكر موصول لكل من المعيد بشير حسن السّمو والمعيدة هناء محمد فرعاس على ما قدموه لي من مساعدة في طباعة هذا الكتاب؛ مساعدة لولاها ما رأى هذا الكتاب النور.

وأخيراً، أشكر الله العلي القدير الذي أمدّني بالقدرة على إتمام هذا الكتاب الذي إن احتوى على منفعة علمية فبتوفيق منه، وإن كان به قصور فأنا وحدي الملوم، والله من وراء القصد.

محمد مصطفى الغوج

مصراتة في ٠٥/٠٥/٢٠١٤م

توطئة

شهد المشرق العربي في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، هجوماً استعمارياً من قبل الغرب الأوروبي، لم تشهد العصور الوسطى له مثيلاً، تمثل فيما يُعرف بالحروب الصليبية التي اتخذت من الدين ستاراً لها لإخفاء ما تنطوي عليه من المطامع والأغراض الدنيوية. وترجع بوادر تلك الحروب إلى القرن العاشر الميلادي حين ظهرت في غرب أوروبا حركة دينية، اشتهرت باسم الحركة الكلونية[1].

ذلك أن الكنيسة لم تلبث أن اتخذت من حركة الإصلاح الكلونية منهاجاً لإصلاح ذات بينها وطورتها إلى أن صارت تهدف إلى التخلص من سيطرة السلطات الزمنية، وجعل البابا زعيماً للعالم النصراني الذي ينبغي أن يخضع لسلطانه جميع النصارى، بما فيهم الملوك والأمراء، والفرسان. ومن ثم لم تعد مهمة البابا العمل على توحيد العالم النصراني وحسب، وإنما صار يسعى إلى نشر نفوذه الديني خارج ذلك العالم. الأمر الذي ترتب عليه أن ما حدث في القرن الحادي عشر من قتال بين المسلمين والنصارى في إسبانيا اتخذ صفة دينية، وأن ما جرى من حروب بين النورمنديين والمسلمين في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا اتخذ صبغة صليبية؛ أي أن هذه الحروب نشبت قبل الحروب الصليبية المعروفة.

---

[1] نسبة إلى دير كلوني الذي تأسس في اوائل القرن العاشر في مقاطعة برغندي بجنوب فرنسا، وهو منبع حركة الإصلاح الديني التي كانت تهدف أول الأمر إلى نشر العفة والتقوى والنظام في الأديرة. ثم لم تلبث أن اتسعت الحركة الاصلاحية حتى أضحت منهاجاً للإصلاح الكنسي العام.

وانطلقت الحروب الصليبية في عام (١٠٩٥) مباشرة عقب إعلان البابا أوربان الثاني عنها بعد نهاية مؤتمر كلير موت بفرنسا، واستمرت سنوات طويلة بين مدٍ وجزرٍ ولم تقتصر هجمات الصليبيين خلالها على بلاد الشام وحدها، وإنما تعدتها إلى معظم البلدان العربية في المشرق والمغرب. بل لقد وصلت محاولاتهم إلى شواطئ الحجاز بغية تهديد الحرمين الشريفين. وليس ثمة من شك في أن اتساع دائرة الحروب الصليبية على ذات النحو، كان له أثره الواضح في زيادة الصلات والروابط بين الشرق الإسلامي والغرب الأوروبي، الأمر الذي أدى إلى نتائج مهمة في التاريخ المستقبلي للطرفين.

ومن المعروف أنه ثمة اتصالات تمت بين الشرق الإسلامي والغرب النصراني في العصور الوسطى قبل بداية الحروب الصليبية، ولكنها كانت اتصالات فردية ومحدودة في أغلبها لم تتعد تبادل الهدايا والكتب بين الملوك والحكام كما حصل بين هارون الرشيد وشارلمان ملك الفرنجة، أو مجيئ بعض الحجاج من الغرب الأوروبي لزيارة الأماكن المقدسة بفلسطين. وإذا وجدت علاقات تجارية بين البلدان الشرق الأدنى – وبخاصة مصر والشام – وبين الغرب الأوروبي، فإنها ظلت حتى انطلاق الحروب الصليبية محدودة وفي نطاق ضيق.

ولكن هذه الأوضاع لم تلبث أن تغيّرت في أواخر القرن الحادي عشر مع بداية الحروب الصليبية؛ ذلك أن آلوف الأفراد من الغرب الأوروبي وفدوا على الشرق الأدنى واستقروا في بلاد الشام وسيطروا على

أغلب أراضيها وموانئها. وكان من الطبيعي أن يكون لأولئك الأغراب اتصال دائم مع بلادهم الأصلية الأمر الذي ترتب عليه قيام حركة ملاحية كبيرة في البحر المتوسط بين موانئ الشرق وبلدان الغرب. أضف إلى ذلك أن فريقاً من الذين شاركوا في الحملة الصليبية الأولى رجعوا إلى أوطانهم بعد أن تم للصليبيين الاستيلاء على بيت المقدس ظناً منهم أن مهمتهم الأساسية قد انتهت، فحكوا عن كثير مما رأوه وصادفوه في الشرق. وكان من نتيجة ذلك أن بدأ الغرب يسمع المزيد من القصص والأخبار عن العرب والمسلمين وبلادهم وحياتهم وعاداتهم، فكانت تلك هي البداية الفعلية لمعرفة الغرب الأوروبي بالمشرق الإسلامي معرفة وثيقة ظلت تنمو وتزداد إلى أن بلغت ذروتها في العصور الحديثة .

و الواقع أن البابوية بذلت جهوداً كبيرة في سبيل توجيه الفرسان وحشدهم لقتال المسلمين، وذلك من أجل تحقيق ما كانت تصبو إليه من أهداف، التي تأتي في مقدمتها؛ فرض سيطرتها الروحية والزمنية على العالم المعروف وقتذاك. على أن الأمراء والفرسان والمدن الإيطالية التجارية جنوا، وبيزا، والبندقية لم يستجيبوا لنداء البابا أوربان الثاني إلا لأنهم رأوا في الاشتراك في تلك الحروب وسيلة لتحقيق أطماعهم التي ليست من الدين في شيء. فالأمراء اشتركوا لتحقيق مكاسب دنيوية، وأبرز مثال على ذلك الأمير النورمندي بوهيموند الذي أعلن صراحة أنه قادم إلى المشرق لإقامة إمارة خاصة به، وأما الفرسان فجاء اشتراكهم لإشباع نزوتهم القتالية، وأما المدن الإيطالية فمن أجل تحقيق أرباح

ومكاسب مادية على حساب الجميع. وأفضل مثال على ذلك ما حدث في عام (١٢٠٤) من سيطرة البندقية على الحملة الصليبية الرابعة، وتحويلها عن هدفها الرئيس وهو مهاجمة مصر، إلى الاستيلاء على القسطنطينية، وإقامة حكومة لاتينية بها، وحصولها على أكبر نصيب من الغنائم.

وأما ما كانت ترمي البابوية إليه من إقامة حكومة تيوقراطية في الشرق، تجمع بين السلطتين الدينية والزمنية، لم يكن سوى أمل بددته قوة الأحداث والمطامع الدنيوية والتجارية؛ فانتصر الأمراء وحققوا أطماعهم بما أسسوه من إمارات في المشرق العربي مثل الرها، وأنطاكية، وبيت المقدس، وطرابلس، كما تحقق للمدن الإيطالية، ما كانت تسعى إليه من حقوق وامتيازات تجارية في الأملاك الصليبية.

ولكن، لابد من الإشارة إلى أن السبب الأكبر وراء نجاح الصليبيين، لا يرجع إلى كثرة عددهم، وما تلقوه من مساعدات من الدولة البيزنطية والمدن وحسب، بل يرجع أساساً إلى انعدام وحدة المسلمين وتفرق كلمتهم واختلاف توجهاتهم السياسية والدينية. وأفضل مثال على ذلك اشتداد النزاع بين الأخوين دقاق ورضوان من أمراء السلاجقة من أجل حرص كل منهما على أن ينفرد بحكم سوريا، ونشبت الحرب بين الأخوين فعلاً في الوقت الذي كانت طلائع الصليبيين تقف على مشارف بلاد الشام.

وهذا، فضلاً عما كان سائداً من خلافات مذهبية بين حكام مصر الفاطميين الذين ينتمون إلى المذهب الشيعي، وبين الخلافة العباسية أو ما تبقى منها في بغداد والتي كانت تتبع المذهب السنّي، وكانت آنذاك – أي في أواخر القرن الحادي عشر – مجرد رمز وواقعة تحت حماية الأتراك السلاجقة .